

مقدمة

أضح الحديث في الآونة الأخيرة عن البيئة وسبل حمايتها من المواضيع الأساسية في الملتقيات العلمية، وفي الندوات التي تعنى بالحياة على وجه هذه البسيطة، وقد تضاعف الإحساس بضرورة تكريس الجهود من أجل العمل على صيانة البيئة وحمايتها من التدهور الخطير الذي لحقها في السنوات الأخير نتيجة جشع الإنسان وحبه إخضاع الطبيعة لسيطرته وتوجيهها لخدمة أغراضه حتى غدا من الصعب تصور حياة مريحة فيما بقي من عمر هذا الكون، وعلى ضوء هذا الأمر كيف كان تصور المغاربة لبيئتهم البحرية؟ وما السبل التي تبناها لحمايتها والاستفادة من ثرواتها وعطاها التي لا ينضب معينها؟

صورة البيئة البحرية لدى مغاربة العصر الوسيط

نظرياً فإن توفر بلاد المغرب على واجهتين بحريتين: بحر الروم "البحر الأبيض المتوسط" والبحر المحيط "المحيط الأطلسي"، يمكن من الوقوف على الثقافة التي كونها المغاربة عن البحر منذ أقدم العصور، وأنهم استغلوا ثرواته في وجباتهم الغذائية واستعملوا لجته في مواصلاتهم. إلا أنه وللأسف- لا نكاد نجد حضوراً للبحر وشؤونه في الثقافة المغربية خلال الفترات القديمة والوسيطة، ولم تحفل أمهات الكتب سواء كانت تاريخية أم فقهية أم كتباً تراثية بمعلومات من شأنها أن تمكننا من الوقوف على مدى اهتمام المغاربة بالبحر، ولعل هذه الوضعية هي التي دفعت العديد من الباحثين إلى وصف الثقافة المغربية والإنسان المغربي بأنه مرتبط بالبر أكثر من ارتباطه بالبحر، شأنه في ذلك شأن سكان الجزيرة العربية^(١). ومن الباحثين من لا يفرق بين المسلمين ويجعلهم على قدم واحدة بأنهم شعب ارتبط بالصحراء والثقافة البرية، ووصف الناقة والفرس أكثر من اتصالهم بالبحر والسفن^(٢).

وقبل أن نحاول بسط موضوع تعامل المغاربة مع البحر، يجمل بنا أن نستعرض بعض مواقف الدارسين الغربيين وأحكامهم تجاه المغاربة في علاقتهم بالبحر. فـ "L-Brunot" يرى أن المغاربة والعرب بصفة عامة تكونت لديهم عقدة الخوف من البحر والمحيط وذلك منذ القديم^(٣) ومعتمدة في هذا الزعم بعض الإشارات اللغوية، حيث يرى أن العربية تطلق كلمة البحر على النهر الكبير والعالم الكبير^(٤)، كما أن المؤرخين عند تعاملهم مع وصف "المحيط الأطلسي" فإنهم يسمونه تارة بالبحر المظلم وتارة ببحر الظالمات ومرة أخرى بالبحر المحيط، وهو ما يدل على الخوف الشديد الذي تكون عند المغاربة نحو البحر المحيط^(٥)، وفي موضع آخر يشكل البحر رمزاً للعظمة والقوة، ومن ثم لا يجب سبه^(٦)، ولعل هذا ما طبع الخيال الاجتماعي المغربي فرسم صورة خاصة للبحر المحيط بألوان من التقديس والاحترام^(٧)، ومن ثم لم يكونوا بحارة كباراً ولا مغامرين بحريين^(٨).

وفي مكان آخر يرى الباحث نفسه أن "البربر" لا يعرفون في الغالب المراكب التجارية وأن وسائل صيدهم ظلت بدائية^(٩)، كما أنهم لم يطوروا وسائلهم البحرية خاصة ما تعلق بتصريف الموانئ، كما أن التجارة البحرية ظلت مرتبطة بالأجانب الذين عملوا على تنشيطها، وحتى عمليات القرصنة التي مورست انطلاقاً من الشواطئ المغربية، كان القائمون بها إما أتراكاً وإما أندلسيين^(١٠). ويستخلص خلاصة مفادها أن المغاربة وبالأخص سكان الرباط وسلا لم يكونوا سوى بحريين متواضعين^(١١).

ويرى مهمم آخر بشؤون البحر أن المغاربة وبعبقريتهم البدوية، شكل البحر لديهم رمزاً كبيراً حتى أنهم نزعوا إلى تقديسه والخوف من ركوبه،

صورة البحر لدى مغاربة العصر الوسيط



د. الطاهر قدوري

شعبة التاريخ - كلية الآداب

جامعة وجدة

وجدة - المملكة المغربية

taharkaddouri@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالوقال:

الطاهر قدوري، صورة البحر لدى مغاربة العصر الوسيط.

دورية كان التاريخية - العدد الثاني عشر؛ يونيو ٢٠١١.

ص ٨٥ - ٨٩. (www.historicalkan.co.nr)



ومراكش مدن قامت بدور متميز في تاريخ المغرب، وأرخت لنشوء دول ارتبطت بالصحراء. لكن هذا الزعم لا يمكن الأخذ به، فأين نضع المهديّة التي أسسها المهدي الشعبي بإفريقية وبجاية التي كانت عاصمة الصنهاجيين وقامت بأدوار متميزة المنطقة؟ وأين نموقع مدينة نكور عاصمة بني صالح وستة التي ارتبطت بالبحر وفضالة عاصمة البرغواطين؟ ألم تكن هذه المدن عواصم لدول أنشئت على السواحل وارتبطت بالبحر؟

وفي ما يتعلق "بيرونو" فيجب التنبيه إلى أنه باحث في اللغة وفي اللهجات، وعلى الأخص الدارجة المغربية، وقد أفادنا بشكل كبير في جمعه ودراسته للدارجة التي كانت تستعملها ساكنة الرباط وسلا على عهد الحماية^(٢٢). إلا أن الأحكام التي خرج بها تتنافى والروح العلمية التي يجب أن يتحلى بها الباحث في العلوم الإنسانية، فإذا كان النشاط البحري للمغاربة أو على الأخص سكان العدوتين الرباط وسلا قد شابه نوع من الضعف قياساً بالتطور البحري الذي عرفت أوروبا في هذه المرحلة^(٢٣)، فإن ذلك لا يجب تعميمه على كل البلاد المغربية التي شهد في حقها أكثر من واحد من المؤرخين والباحثين على مدى التفوق الكبير للمغاربة في الميدان البحري خاصة خلال العصور الوسطى^(٢٤). ويرى أحد الباحثين أن خلو اللهجة المغربية سواء عربية أم بربرية من المصطلحات المتعلقة بالبحر وشؤونه لا يقوم دليلاً قوياً على اهتمام المغاربة بإدارة ظهورهم للبحر والخوف منه^(٢٥).

وكثيراً ما يتم الاعتماد على ما ورد في رحلة ابن جبير وابن بطوطة والتيجاني والمقري التلمساني، فهؤلاء الرحالة سافروا بحراً وخلقوا أوصافاً حية للبحر وأحواله خاصة عند اضطرابه واشتداد الأتواء، فتلك النفسية المضطربة التي يتم استخلاصها من وصف الرحالة من قبيل:

البحر صعب المرام جدا لا جعلت حاجتي إليه
أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه^(٢٦)

فيلم الاعتماد عليها لتفسير خوف المغاربة من البحر^(٢٧)، إلا أن هذا كذلك لا يرقى إلى مستوى نفي أي اهتمام أو خوف للمغاربة من البحر، ولعل تلك الحالة من الخوف تكاد تكون طبيعية وتنتاب كل من يركب البحر لأول مرة، أو حتى الذي يكون متمرساً في ركوبه خاصة إذا كانت الأتواء شديدة. ولعل رحلة هؤلاء الرحالة بحراً حجة قوية لصالح المغاربة وليس ضدهم، فلا يمكن لمن يخاف من الشيء أن يقبل عليه حتى ولو كان الطريق البري غير مأمون العواقب^(٢٨).

إن علاقة المغاربة بالبحر ضاربة في القدم، وقد أكدت ذلك الأبحاث الأركيولوجية التي أجريت في بعض المواقع الساحلية المغربية، إذ تم العثور على بقايا لإنسان في موقع سيدي عبد الرحمان قرب مدينة الدار البيضاء ومواقع تمارة الصخيرات، حيث توجد عدة مغارات استغلها المغاربة القدامى إما ملاجئ آمنة وإما أمكنة لدفن موتاهم^(٢٩). وستستمر علاقتهم بالبحر عبر الفترات الزمنية المتعاقبة حتى سيطروا على الإبحار في البحر المتوسط^(٣٠)، ولم تبدأ مرحلة الضعف والتراجع إلا في العصور الأخيرة^(٣١).

ودائماً في إطار اهتمام المغاربة بالبحر، فإن البحار المغربي بلغت شهرته الأفاق^(٣٢)، عندما قام بحارة قانس برحلات تجارية جابت شواطئ البحر المتوسط أيام الإمبراطور أوغسطس، ووصلوا إلى بلاد العرب، وكانت رحلاتهم معدة بشكل منظم^(٣٣)، بل إن منهم من غامر في بحر الظلمات بقصد اكتشاف مجاهله^(٣٤) ومعرفة حدوده والشعوب التي تسكنه. كما ساهم البحار المغربي مساهمة فعالة في الحروب الصليبية واكتسب شهرة طيبة^(٣٥) إبان إخراج الصليبيين من أبله، وكان المسؤول عن دار الصنعة بالإسكندرية أيام المهالك رجل مغربي اسمه إبراهيم

فشاع لديهم أن من يركب البحر مفقود ومن ركبته وعاد ناجياً فإنه يكون كمن ولد من جديد^(٣٦)، ويحاول هذا الباحث أن يفسر هذا الإعراض عن البحر فيفترض أن طبيعة المنطقة هي التي تحكمت في ذلك حيث تتميز بقلّة الأنهار الصالحة للملاحة وأن شواطئه غير آمنة^(٣٧)، كما أن عواصمهم التي قامت بأدوار كبيرة في تاريخهم كانت بعيدة عن البحر نموذج القيروان وفاس ومراكش وتينملل^(٣٨). ويشير في موضع آخر إلى أن اهتمام المغاربة بالبحر كان مع زوال سبتة وقرطاجة واندماج المغرب في العالم الروماني، ففي هذه المرحلة أخذت بوادر الاهتمام المغربي بالبحر تظهر مع تأسيس الوندال دولة معتمدة على نشاط القرصنة^(٣٩).

أما روجي كواندرو فلا يختلف عن سابقه بشأن الأحكام التي كونها عن المغاربة وخوفهم من البحر حتى أنه اعتبر ذلك أمراً وراثياً توارثته أجيال المنطقة^(٤٠)، وكان شاهده في ذلك ما أورده صاحب المقدمة، ولا شك أن ما جاء به ابن خلدون في كثير من الأحيان لم يفهم فيها صحيحاً، خاصة وأن بعض الدارسين يأخذون آراء ابن خلدون مجزأة بعيدة عن سياقها العام، ويحاول كواندرو أن يفسر هذا الرعب الوراثي الذي تكون لدى المغاربة بأمرين أساسيين:

- العظمة الخفية للمحيط الأطلسي.
- طابع التمتع للشواطئ الأطلسية.

وفي مكان آخر؛ يرى أن المغاربة حتى إذا ركبوا البحر فإنهم يبدون رفضاً كبيراً لاستعمال التقنيات الملاحية. بيكار وخرائط ومقياس الزمن... وبالتالي "لا يمكنهم مع ذلك إدراك الملاحة التنجيمية ولا يمكن لأحسنتهم سوى استعمال الملاحة التخمينية"^(٤١). وهكذا نلاحظ انطلاقاً مما سلف أن الذين تناولوا موضوع المغاربة والبحر من الأوربيين لا يتوانون عن ترديد عبارات بل أحكام كادت تصح من المسلمات التي لا يمكن نقضها من قبيل تقديس المغاربة للبحر، والاعتقاد في قوة خفية تتحكم في البحر، إذا لم يتم إرضائها فإنها سوف تغضب على كل من يركب البحر. لهذا لا بد من تقديم القرابين لها^(٤٢).

لكن الذي يلاحظ حول هذه الكتابات أنها جاءت تغطي مرحلة قصيرة من تاريخ المغرب، فروجي كواندرو خصص كتابه لقرصنة سلا في الفترة التي انتعشت فيها ظاهرة القرصنة السلاوية الرباطية، بينما "برينو" حاول أن يبحث في الموروث اللغوي البحري لمنطقة الرباط وسلا خلال فترة الحماية، إلا أنه يلاحظ أن الأحكام التي خرجوا بها كانت أحكاماً عامة وتغطي كل فترات التاريخ المغربي، وكأن المغاربة لم يكن لهم أي اهتمام بالبحر وشؤونه حتى أن كواندرو يجعل اهتمام المغاربة مرتبطاً بالمساعدات الخارجية^(٤٣)، إلا أنه لا يفصح عن مكان قدوم هذه المساعدة هل من المشرق أم من الأندلس؟ وقد نستبعد المشرق باعتبار أن أحكام الأوربيين في الاهتمام بشؤون البحر تجمع بين المغاربة والعرب على حد سواء، أما بالنسبة للأندلسيين، فيبقى الأمر مقبولاً خاصة في مرحلة انتعاش القرصنة ولجوء الأندلسيين أو "المورسكيين"^(٤٤) إلى الشواطئ المغربية وممارستهم لعمليات القرصنة.

وبصفة عامة فمؤرخو العهد الاستعماري يربطون بداية الاهتمام المغربي بالبحر بمجيء الأوربيين خاصة الفرنسيين، فإلى أي حد يمكننا قبول هذه الآراء أو رفضها؟ بالنسبة لعملية تقديس البحر فلا شك أن هذه الظاهرة تكاد تكون عامة عند مختلف الشعوب التي دأبت منذ القديم على تقديس قوى الطبيعة التي كانت تعتقد فيها جلب الخير ودرء الشر^(٤٥).

أما بخصوص بعد العواصم المغربية الوسيطية عن البحر فهذا صحيح بالنسبة لفاس والقيروان ومراكش، لكن الأمر غير مقبول عندما يعمم على كل المدن المغربية، فصحيح -كذلك- أن القيروان وفاس

وسنحاول مقارنة هذا الجزء عبر نقط أساسية. تتعلق النقطة الأولى باستغلال الثروات البحرية، وهنا نشير إلى أن المعلومات التي تقدمها لنا كتب الجغرافية والرحلات على قدر كبير من الأهمية، والفضل يرجع لهذا النوع من المصنفات في الكشف عن أنواع الأسماك وأوقات خروجها وتكاثرها وأماكن اصطيادها، إلا أننا لن نقف عند كل هذه المعطيات وسنكتفي بما يخدم موضوعنا.

لعل من نافلة القول التذكير أن أقدم الإشارات المصدرية المتعلقة بالثروات السمكية هي تلك التي أوردتها كل من ابن حوقل في "صورة الأرض" والبكري في "مسالكه" وهي الإشارات نفسها تقريبا التي أوردتها الإدريسي في "نزهته" وصاحب "الاستبصار"، والأمر لم يقف عند استغلال الأسماك بل تعداه إلى استخراج ثروات أخرى أهمها المرجان الذب كان يجمع من موقعين نالت شهرتهما الأفاق: مرسى الخرز^(٥٠) ومرسى سبتة^(٥١). ومن خلال مقابلة الروايتين يمكن أن نستنتج استمرار أهمية مرسى سبتة في استخراج المرجان هذا في الوقت الذي تراجعت فيه أهمية مرسى الخرز، ولعل الأمر هنا يمكن تلمسه في الإمكانيات البحرية التي أصبحت تتوفر عليها مدينة سبتة قاعدة الأسطول المرابطي والموحدي خلال القرنين ٥ و٦هـ/١١.١٢م.

ولحماية هذه الثروات وعقلنة عملية استخراجها فإن الدولة كانت تسهر مباشرة على عمليات الاستخراج بتعيين أمناء ونظار يتولون الإشراف على عمليتي الاستخراج والبيع^(٥٢)، وهذه العملية كانت تقوم بها سفن تخرج مجتمعة تصل إلى خمسين قاربا قد يشغل القارب الواحد حوالي عشرين بحارا^(٥٣) والعملية ذاتها يمكن أن تسحب على الثروات السمكية، فهل كانت عملية الاصطياد خاضعة لتنظيم خاص من شأنه أن يحافظ على التنوع الطبيعي للأسماك، بمعنى هل كانت مراقبة من قبل الدولة أو على الأقل من قبل ديوان البحر أو المحتسب؟ أم أنها كانت عملية حرة يمارسها كل من توفرت إمكانية الحصول على مركب والشباك؟ مما يدفعنا للتساؤل عن إمكانية وجود "جمعيات" ينظم فيها الصيادون ويسهرون على تنظيم هذه العملية وحل الخلافات التي قد تظهر بين التجار والصيادين والزبناء؟

ربما يكون من الصعب جداً في الفترة الوسيطية الحديث عن وجود مثل هذه الجمعيات التي تحاول تنظيم عمل المجموعات ذات المهنة المتشابهة، أما بشأن الفتوى التي أوردتها النوشريسي^(٥٤) فأنها تتعلق أساساً بما يمكن أن نسميه بشركة صيد بحري يتم توزيع الإنتاج فيها حسب مشاركة كل صياد في هذه الشركة، وكان معيار تقسيم الإنتاج يأخذ بعين الاعتبار عدد الشباك التي ساهم بها كل صياد، فالذي ساهم بثلاث شبكات يأخذ سهامين من الإنتاج والذي ساهم باثنين يأخذ سهماً ونصف، والذي ساهم بواحدة يأخذ سهماً واحداً. إلا أن النازلة لم تجد استحساناً من قبل أبي القاسم الغبريني الذي لم يبح حصة النتاج التي يأخذها المساهمون في مثل هذه الشركات، وهذه الإشارة الوحيدة التي نتوفر عليها بشأن هذه المسألة لا تجعلنا نتحمس للإقرار بوجود "جمعيات" تتولى تنظيم الصيد السمكي.

إلا أن الأكد أن الثروات البحرية كانت على درجة كبيرة من الأهمية، وقد أدركت الدولة المركزية في هذه المرحلة أهمية ما يستخرج من البحر، ولهذا كانت تسعى إلى تنظيم عملية الاصطياد. ويفيدنا المقري التلمساني بإشارة غاية في الأهمية تتعلق بمدينة سبتة التي كان يشرف بها عامل المضارب وأعوانه على تنظيم عملية بيع السمك في المرسى واستخلاص عائداتها^(٥٥)، وإذا سلمنا كون عامل المضارب تابعاً لإدارة الميناء ومنها يستخلص حقوقه وحقوق أولئك المشتغلين معه، فإنه في مدينة سبتة على عهد آل العزفي نتوفر على إشارة طريفة وفريدة من نوعها

التأزي الذي أبلى البلاء الحسن في محاربة الصليبيين^(٣٦)، ومن ثم شاع أن الفرنج لا يقهرهم إلا المغاربة الذين يجاورونهم في جزيرة الأندلس لأنهم كانوا عارفين بطرق قتالهم^(٣٧)، ولعل هذا هو السبب في إرغام كل مغربي وجد في مصر على الخدمة في الأسطول، بل وكانوا يسجنون حتى إذا حان وقت الحاجة إليهم أخرجوهم وأركبوهم الأسطول لرد أخطار الصليبية^(٣٨). وفي عهد صلاح الدين كان قائد أسطوله عبد السلام المغربي الذي وصف بالحدق والشجاعة وظل متصلاً بالبحر إلى أن توفي غرباً في حصار صور عام ١١٨٧/٥٨٣^(٣٩). ولعل هذه المشاركة للمغاربة في الحروب الصليبية هي التي حملت الصليبيين على التضييق على الحجاج المغاربة بمختلف أنواع المغارم كإجراء عقابي "فجزاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية الرموها رؤوسهم فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم"^(٤٠).

فإذا كانت هذه النماذج توضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك مهارة المغاربة في شؤون البحر وتمرسهم على ركوبه، ويبقى لنا أن نحاول إبراز علاقة بعض الفئات الاجتماعية في المجتمع المغربي بالبحر، وسنركز في هذه النقطة على المتصوفة دون سواهم وذلك لعدة أسباب أهمها المكانة التي احتلها الأولياء والمتصوفة في المجتمع المغربي الوسيط^(٤١) فكيف تعامل المتصوفة مع البحر؟ لقد شغل تسخير البحر للأولياء وإظهار كرامتهم فيه جزء مهم من كتاب التشوف^(٤٢) وهذا يدل على مدى قوة الولي لتسخير قوى الطبيعة، حتى اعتبر المشي على البحر من بين الأمور التي تمكن المرید من أن ينخرط في سلك المریدين^(٤٣) ومن الأولياء من كان ينام على لجة البحر وفي حجره كتاب لا تصله أمواج البحر أو حتى رشاشها^(٤٤) ومنهم من استطاع أن يحول ماء البحر من ماء مالح أجاج إلى ماء عذب فرات^(٤٥) وبعضهم كان يتدخل لتهدئة البحر والحد من هيجانه^(٤٦). يرى أحد الباحثين أن هذا الوضع يفسر بكون العامة تعتقد في الأشياء الخارقة للعادة ومن ثم نسبت للأولياء وغرائب الأمور، ويلجؤون إليهم عندما يضطرب البحر وتكثر انواؤه، فالولي هو ذلك الشخص الذي وضعت فيه قوة إلهية تمكنه من التحكم في الظواهر الطبيعية^(٤٧) وأن البحر يرمز للحياة الطاهرة، وهو نجاة لمن يرغب في الخلاص^(٤٨).

سلوك المغاربة نحو البيئة البحرية وسبل حمايتهم لها

بعد هذه الوقفة التي حاولنا من خلالها رصد الصورة التي كونها المغاربة في المراحل الوسيطية عن البحر وخوض أهواله وقطع مراحل، فإننا في النقطة الموالية نسعى من خلالها معالجة السلوك الذي كونه المغاربة عن البحر في إطار تعاملهم اليومي معه خاصة سكان السواحل، فقد ألفوا الإقدام على عدة أمور قبل أن يركبوا لجهته، خاصة وأن الخوف من تغير أهوال البحر بين الفينة والأخرى كان أمراً واقعاً كما أن الخوف من الوقوع في قبضة العدو (القرصنة) كان أيضاً لا يقل أهمية عن العنصر الأول، لهذا كان لا بد لركاب البحر أن يردد عدة ترانيل وأدعية، ومن ذلك ما اشتهر عند المغاربة بحزب البحر. وهذا الحزب ينسب لأبي الحسن الشاذلي^(٤٩) وهو في عمومهم مجموعة من الأدعية والترانيل التي كان يقوم بها هذا الولي وحافظ عليها تلامذته عند ركوبهم البحر، وقد استقى أبو الحسن الشاذلي هذا الحزب من خلال قراءته الواسعة للقرآن الكريم، حيث يستشهد بالعديد من الآيات القرآنية والبدايات الأولى لمجموعة من السور ويرفقها بأدعية متنوعة تنتهي في مجملها إلى الدعاء والتضرع لله قصد الحماية من خطر العدو والنجاة من أهوال البحر.

وهكذا فإننا نصل بذلك إلى النقطة الأخيرة من هذا المقال والمتعلقة بالتقنيات والوسائل التي استخدمها المغاربة للحفاظ على بيئتهم البحرية

وهذه الوضعية يعكسها البادسي في حالة الرعب التي كان يعيشها سكان السواحل الريفية جراء التردد المستمر لسفن النصارى-الأوربيين- على السواحل المغربية وما كانوا يقومون به من سلب ونهب وأسر للسكان في إطار عمليات القرصنة. فكان السكان يعمرن السواحل في زمن الشتاء الذي يواكب التوقف القصري للسفن بسبب اضطراب البحر وكثرة أنوائه وأهواله ،وعندما يأخذ الجو في الاعتدال إبان فصل الربيع والضيف فإن السكان يصعدون إلى الأماكن المرتفعة طلباً للحماية من هجومات القراصنة ويخلون السواحل إلا من أعداد قليلة من السكان.^(٦٣)

وللحد من هذه الظاهرة ومحاصرتها وحماية البيئة البحرية التي سخرها الله للإنسان وكانت بذلك أساس التكريم الإلهي للإنسان.^(٦٤) فإن الدول المغربية الوسيطة كانت لها مواقف رائدة في تميم أي مبادرة لحماية السفن والسكان والسواحل عامة من هذه اللعنة التي لحقت الملاحه في العصور الوسيطة لهذا وجدنا الموحدين في إطار ضبطهم لسواحلهم ينصون في معاهدات السلم والصداقة التي كانت تجمعهم بالدول الأوربية خاصة الجمهوريات الإيطالية(خاصة جنوة وبيزا والبنديقية) على ضرورة محاصرة هذا السلوك.^(٦٥)

خاتمة

وهكذا، فإن ما يمكن أن نخلص إليه من خلال هذا المقال أن المغاربة تعاملوا مع البحر وفق ثقافة خاصة تسعى إلى محاولة استغلال ثرواته واستخدام لجته في حياتهم اليومية محاولين الحفاظ على بيئتهم البحرية وتنوع عناصرها البيئية محققين بذلك أساس التكريم الإلهي للإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات.

الهوامش:

- ١- أنظر علاقة المسلمين بالبحر في: أنور عبد المنعم، الملاحه وعلوم البحار عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، ع. ١٣، يناير ١٩٧٩. وجورج فضلو حوراني، العرب والملاحه في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، القاهرة د.ت، وسعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية، القاهرة، ١٩٦٧.
- 2 - L. Brunot. La Mer dans les traditions indigènes à Rabat et Salé, Paris, 1920, p 1 et 240.
- 3- L. Brunot. La Mer, p 1
- 4- , p 2. Ibid
- 5 -Ibidm.
- 6- Ibid, p 4
- 7- . Ibid, pp 11- 12
- 8 - Ibid , p 64.
- 9- Ibid, p 240.
- 10 - Ibid, p 242.
- Ibid, p.240. -11
- 12 - Jean MonLaiü: Les Etats Barbaresques, Pais, 1964, p 14.
- 13- p p 13-14 Jean MonLaiü
- 14 -Ibidm.
- 15- Ibid. p 17.
- ١٦ - كواندرو، قراصنة سلا، ترجمة، محمد محمود، نشر جامعة محمد الخامس، ١٩٩١، ص: ١٧-١٨. هذا الموقف تبناه عبد العزيز بنعبد الله، دور الملاحه المغربية في البحار طوال ألف عام، مجلة المناهل، ع. ٣٢، ١٩٨٥، ص: ١٠٠. ونفس الموقف نسجله عن حسن أميلي، الجهاد البحري بمصب أبي رقراق خلال ق ١٧. د.د. ع. كلية الآداب: محمد ٧. ص: ٦٤-٦٥ و ٧٥-٧٦.

أوردها "صاحب أزهار الرياض"^(٥٦) مفادها أن عامل المضارب كان له الحق في أخذ عائذات السمك طيلة يوم كامل وأن يأخذ بيت المال عائذات يومين. وقد جعلت العائذات السمكية إذا كان يوم عامل المضارب الشريف أبي العباس الحسني لفائدة المساكين والضعفاء والمتنزهين الذين كان يعز عليهم الحصول على السمك في الأيام العادية، وكانت تحصل له عائذات كبيرة قدرها المقري ب" فيتصل بيده من فائدة يومه مئة الدينار وسبع المائة، وربما يزيد وينقص، وقد انتهى في بعض الأحيان إلى ألفي دينار في اليوم حسب يسنيه الله عز وجل".^(٥٧)

وهكذا فإن عملية صيد الثروات البحرية في المراسي الأساسية - ستة المعمورة فضالة. سواحل الريف- كانت تدر على الدولة أموالاً مهمة تستعين بها لتغطية حاجاتها المتزايدة ولا نعتقد أن قطاعاً من هذه الأهمية كان خارجاً عن مراقبة الدولة خاصة إدارة الموانئ للحفاظ على التنوع البيئي في السواحل المغربية الوسيطة. وارتباطاً بموضوع السمك، فإن مما أُنيط بالمحتسب - إلى جانب جودة السمك- أن ينبه على ما يمكن أن يلحقه استخفاف باعة السمك بالمستهلك، فقد كان عليه أن ينبه باعة السمك والذين يتولون قلي السمك في السوق إلى أن يتخذوا رواقاً خاصاً بهم، تقادياً لها من شأنه أن تسببه روائح السمك وأبخرتها من إزعاج للمارة ولبائقي التجار، لهذا ألزمهم بضرورة تنظيف الساحة التي يشتغلون فيها، "ويمنعون من طرح حوت البحر في الماء العذب فإنه يفسده"^(٥٨).

القرصنة

أثارت ظاهرة القرصنة أو الجهاد البحري نقاشاً حاداً بين الباحثين قديماً وحديثاً، فمنهم من اعتبرها نشاطاً عادياً وأمرًا طبيعيًا وهي بذلك قديمة قدم الملاحه البحرية، وبين من اعتبرها أمرًا طارئاً عكر صفو التنقلات البحرية والنهرية، منهم من جعلها آفة لصيقة بالأمة الإسلامية، وبعضهم عمم أفكاره فجعلها خاصة بالشعوب البحرية. ولا نود الخوض في هذه الجزئيات المصطلحية والشحنة الحضارية التي تحملها،^(٥٩) وإنما نروي رصد هذه الظاهرة على مستوى تغيير السلوك البيئي البحري الذي كانت تحدثه.

من خلال تصفحنا لمجموعة من الإشارات الواردة في مصادرنا، فإن المسلمين عمومًا والمغاربة خصوصًا قد تعرضت سفنهم لعمليات النهب التي مارسها بحارة من مختلف المدن الأوربية، ورغم أن الغرر كان يغلب على الطريق البري بسبب القلاقل التي أحدثها الغزو الهلالي بالطرق البرية الرابطة بين بلاد المغرب ومصر^(٦٠) فإن المغاربة وخاصة أولئك الذين عزموا على زيارة البيت الحرام غالباً ما كانوا يسافرون على متن سفن توصلهم إلى بلاد مصر ليواصلوا بعد ذلك الرحلة إلى بلاد الحجاز إما برًا وإما بحرًا.

إن تفضيل المغاربة الطريق البحري لا يعني أن البحر كان أكثر أمناً من الطريق البري بقدر ما يدل على أن الخطورة كانت متفاوتة بين الطريقين، وحتى إذا ركبو البحر فإنهم كانوا ينتظرون في كل لحظة أن يقعوا في قبضة العدو ولعل الحالة النفسية التي عاشها ابن جبير وابن رشيد السبتي وأحمد المقري على متن المراكب التي أقلتهم إلى ديار مصر خير دليل على قلة الأمن في بحر الروم "البحر المتوسط"^(٦١). والخوف من مباغته العدو كان له انعكاس على فلسفة العمارة في السواحل المغربية إذ عمد سكان السواحل إلى اتخاذ رباطات وحصون منيعة ومنازل تمكنهم من مراقبة السواحل ورصد حركة السفن.^(٦٢) وإنذار قومهم بوسائل الإنذار المعروفة وقتئذ (إطلاق الدخان إذا كان الوقت نهاراً وإشعال النار إذا كان الوقت ليلاً هذا بالإضافة إلى قرع الطبول).

- ١٧- كواندرو ، قرانصة سلا ، م.س.ص: ٤٧.
- ١٨- نفسه. E. Laoust , « Pêcheur Berbers du sous », Hes, 1923 t3. pp 347-348-361.
- ١٩- كواندرو ، قرانصة سلا ، م.س.ص: ١٨.
- ٢٠- محمد زروق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال ق ١٦-١٧ ، الدار البيضاء، ١٩٩١ ، ص ٢١٠ وما بعدها.
- 21 - Halima FERHAT, « Demos et Merveille: l'Atlantique dans l'imaginaire Marocain Medieval », le Maroc et l'Atlantique- U.Med V. F.L. Rabat. Colloque n° 21, PP 21-32-35
- ٢٢- ممد زنيبر ، المغرب في العصر الوسيط ، منشورات كلية الآداب ، الرباط ، سلسلة رقم ٢٤ ط ١ ، ١٩٩٩ ، ص: ٣٨٨.
- ٢٣- بداية تراجع اهتمام المغاربة بالبحر تسجله سنة ١٤١٥م/٨١٧هـ التي أرخت لاحتلال سبتة من طرف البرتغال ، وما لحق السواحل المغربية من دمار من جراء هذا الغزو: حسن الوزان ، وصف إفريقية ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، ط ٢ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣. ج ١ ص: ٣١٨.
- ٢٤- محمد الطويل ، النقل والتنقل في المغرب خلال العصر الوسيط ، رسالة مرقونة كلية الآداب الرباط ، ص: ٢١٢.
- ٢٥- نفسه ، ص: ٢١٢-٢١٣. كذلك ، عبد المجيد القُدوري ، " البحر في التخييل المغربي " ورد في مجلة الملتقى. ع ٤. السنة ١٩٩٩. ص: ٥-٢٤.
- ٢٦- أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ، نفع الطيب من غصن الأندلس الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت. ١٩٦٨ ، المجلد الأول. ص: ٣٣.
- ٢٧- اعتمد عبد المجيد القُدوري في نقده للكتابة الاستعمارية التي تناولت والبحر على ما جاء عند الإدريسي وابن بطوطة. م.س. ص: ٨-٩-١٠. إلا أنه يمكن توسيع الدائرة لتشمل كتب النوازل وكتب الجغرافية ورحلة ابن جبير.
- ٢٨- س.د. جوانباين ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، والنظم الإسلامية ، ترجمة عطية القومي ، الكويت. ط ١. ١٩٨٠. ص: ٢١٧-٢١٨.
- ٢٩- عبد المجيد القُدوري ، م.س. ص: ١٧-١٨.
- ٣٠- ابن خلدون ، المقدمة ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٣. ص: ١٩٨.
- ٣١- عبد المجيد القُدوري ، م.س. ص: ١٠-١١.
- ٣٢- عبد العزيز بن عبد الله ، " دور الملاحة المغربية في البحار طوال ألف عام " ، مجلة المناهل ، ع ٣٢ ، عام ١٩٨٥ ، ص: ٨٩.
- ٣٣- خوان برنيت ، " هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط البحرية " ، ترجمة محمد مختار العبادي ، م.م.د.ع. ١ سنة ١٩٥٣. صص: ٨٢-٨٣.
- ٣٤- عبد العزيز بن عبد الله ، م.س. ص: ٨٩.
- ٣٥- أنور عبد المنعم ، عالم المعرفة ، م.س. ص: ٩٨. محمد الطويل ، النقل... ، م.س. ص: ٢٢٨.
- ٣٦- عبد العزيز بن عبد الله ، م.س. ص: ١٠٩.
- ٣٧- المقرئ ، نفع الطيب... م.س. ص: ٢٤٥.
- ٣٨- جوانباين م.س. ص: ٢٤٥.
- ٣٩- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق جماعة ، ط ٤ ، دار الكتب العربية. بيروت ، ١٩٨٣ ، ج ١١ ص: ٢١٠. محمد المنوني: " نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام وما إليه " ، مجلة كلية الآداب ، الرباط ، ع ٢١ و ٢٢ ، ١٩٩٦ ، ص: ١٤٤.
- ٤٠- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، مقدمة مصطفى زيادة ، د.ت. ص: ٢١٠. محمد المنوني ، مقال سابق ، ص: ١٤٣.
- ٤١- يمكن الرجوع لكتب التصوف للوقوف على هذه الظاهرة . خاصة كتاب التشوف لابن الزيات والمقصد الشريف... للبادسي.
- ٤٢- أبو يعقوب يحيى التادلي ، التشوف إلى رجال التصوف ، تحقيق أحمد توفيق ، منشورات كلية الآداب. الرباط ط ٢. ١٩٩٧. صص: ١٢١ - ١٦٠.
- ٢١-٢١١-٢٣٤ و ١٢٧.
- ٤٣- نفسه ، صص: ١٢٠-١٢١.
- ٤٤- نفسه ، ص: ١١٦.
- ٤٥- نفسه ، ص: ٢٨٨.
- ٤٦- عبد المجيد القُدوري ، م.س. ص: ١٤. ومقال حليلة فرحات ، م.س. ص: ٤٧.
- ٤٧- القُدوري ، م.س. ص: ١٤-١٥.
- ٤٨- ابراهيم القادري بوتشيش ، المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٩٣ ، ص: ١٤٤.
- ٤٩- وهو أحد متصوفة مصر كان يردد هذا الحزب عند ركوبه البحر ، وقد حافظ تلامذته على عادة شيخهم ولسنا ندري الطريقة التي وصل بها هذا الحزب إلى بلاد المغرب وهل كان للمتصوفة المغاربة الذين كانوا يزورون مصر وبلاد المشرق عموما دور في نقل هذا الحزب إلى المتصوفة والموردين المغاربة. وللإطلاع على هذا الحزب يرجع للملحق الذي ذيل به المحقق لرحلة ابن بطوطة ، تحفة النظائر... ، تحقيق علي منتصر الكتاني ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت. ١٩٧٩. وكذلك لبعض النسخ المخطوطة من هذا الحزب بالخرزانة العامة بالرباط تحت رقم: ١٦٠.٨ ورقة ٩٣. ٩٦. ود. ٢٢٦٥ ، ورقة ١٩٩. ٢٠٢.
- ٥٠- ابن حوقل ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٧٣.
- ٥١- الإدريسي ، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ، نقله إلى العربية ، محمد حاج صادق ، O.P.U بلجيكا ، ١٩٨٣. ص: ١٨٣.
- ٥٢- ابن حوقل ، م.س. ص: ٧٣.
- ٥٣- نفسه ، الإدريسي ، م.س. ص: ١٧٣.
- ٥٤- أبو العباس الونشريسي ، المعيار المغربي... ، تحقيق جماعة ، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ج ٨. ص: ١٨٩.
- ٥٥- المقرئ التلمساني ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، ج ١٢ ، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي ، د.ت. ص: ٤٣.
- ٥٦- نفسه.
- ٥٧- نفسه.
- ٥٨- أحمد بن عبد الرؤوف ، ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحاسب ، جمع ليفي بروفنصال ، القاهرة ، ١٩٥٥. ص: ٩٧.
- ٥٩- يمكن الرجوع ل: روجي كواندرو ، قرانصة سلا ، ترجمة محمد محمود ، نشر جامعة محمد الخامس. ١٩٩١. وحسن أميلي ، الجهاد البحري بمصعب أبي رفرق خلال القرن ١٧م ، رسالة مرقونة كلية الآداب الرباط. ودراستنا حول النشاط البحري في العصرين المرابطي والموحدي ، رسالة مرقونة كلية الآداب وجدة ، ص: ١٤٦ وما بعدها.
- ٦٠- الوزان ، وصف إفريقية ، ج ١. صص: ٦٥-٦٦.
- ٦١- ابن جبير ، ص: ٦٩. ١١٤. ٢١٩. ابن رشيد السبتي ، رحلة ابن رشيد السبتي ، تحقيق أحمد حدادي ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا ، رسالة مرقونة كلية الآداب ظهر المهراز ، السفر الخامس ، ص: ٩٧٥. نفع الطيب ، مج ١. صص: ٣٣. ٣٥.
- ٦٢- البكري ، المغرب في بلاد إفريقيا والمغرب ، جزء من المسالك والممالك ، تقديم وتحقيق M.G.Deslane ، د.ت. ص: ٩١. ١٠٥. ١٠٧. الإدريسي ، ص: ١٩٠.
- ٦٣- عبد الحق البادسي... ، تحقيق سعيد أعراب ، ط ٢ ، المطبعة الملكية الرباط ، ١٩٩٣ ، ص: ٥١. ٦١. ٦٧. ٧٥.
- ٦٤- " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر " الإسراء. ٧١
- 65 - Mas Latrerie, Traités et document divers concernant les relations des chrétiens et les arabes au moyen age, Paris, 1968, p91.
- البند ١٩.